المشرق
مجلة

السنة الخامسة والاربعون — نيسان – حزيران ١٩٥١

تمهيد

المعضلة في عصرنا هي دون ريب العثور على الانسان وعن قيمة الانسان التي لا يُستعاض عنها . فان المادة والمصنع نزعا عنه حتى الشعور براجباته كانسان . فاذا هو اليوم يرضى بألّا يكون سوى شخص مجهول غارقٍ في جمهور لا لون له ولا غاية. يرضى بان يذوب في هذه اللاشخصية لانه لا يشعر من ذاته بالقوة للوقوف بوجه الذين كان من الواجب عليهم ان يهذّبوا ضميره ويجعلوه يحس بكرامته كانسان .

انسان اليوم يبدو متزعزعاً ، لا اصول تسنده ؛ وتطوّف به اهواء بعض القادة ، وبعض الافكار والعقائد . اما ما هو بحاجة ملحة اليه ، فليست الافكار والعقائد : ان ما ينقصه هو الروح.

الانسان اليوم فقد حسة تذوق الحياة الحقيقية واستولى عليه الملل . ليس له رغبة في العمل ؛ وان اشتغل فلكي لا يهلك من الفاقة والجوع . فانه من وراء عمله لا يرمي الى ابتناء امة افضل مرتكزة على العدل والمحبة . ذلك ما لا يهتم له ؛ فقد غدا يشعر بانه ليس سوى مادة للاستغلال ، وبان قيمته احطّ من المهنة ذاتها . فعالمنا الحاضر الذي فقد معنى الانسان مسؤول عن هذا الضجر من الحياة الذي يشعر به معاصرونا - أتراهم لا يقدّرون غير الثروة والغنى المادي ؟ اترى عالمنا أضاع الى هذا الحد روحه فاذا بنا اليوم نتقلّب في هـذه الازمة المريعة ، ازمة الانسان ؟ فمن الضروري العاجل اذًا ان يستعيد الانسان العصري روحه .

من جراء الفقر المدقع الناتج عن الحروب ؛ او من جرّاء الثورات الضخمة المحدّثة اصبح الانسان شخصاً تابعاً تسيّره كالحروف الطيّع بعض القادة الذين جعلوا من المنفعة السيد الاوحد . وما كانت مصانع الرأسمالية الشديدة القساوة على العامل والتي تُكره النساء والاولاد على العمل الشاق مفكّكة اوصال العيل ، سوى صورة ورسم ، واصبحت اليوم نتيجة موجعة لمعسكرات الاعتقال . ان الحاكم الفرد المسلّط حتى على ضمائر الناس ، او حكم بعض افراد لا حدّ لقدرتهم ، يجعل الانسانَ محجورًا عليه في ذاته . وهكذا لم يبقَ من اثر للحرية الحقيقية . ولكن الانسان ما برح يحنّ الى تلك الحرية .

علاقة الانسان بحكامه هي اليوم رهن شؤون اقتصادية سياسية . والويل لمن يتوخّى غير هذا النوع من العلاقات . ويظهر ان هناك ضرورة شديدة الوطأة على الانسان الحالي تجعله يشعر بانه ليس سوى نتيجة تأثيرات عارضة .

المسيح لم يكن البتة فيلسوفاً وعقائدياً . وكان على الانسان في نظره ان يسمو على المادة ليعيش القيم الروحية الكامنة في اعماق كيانه . كان يريد ان يحرر الانسان من هموم الغد لكي لا يُستعبد لاقل من ذاته . المسيح كان

يريد ان تكون علاقات الانسان معه شخصية ، حيّة ، لا مثل علاقات قائد يحكم على جمهور ويجهل حاجة هذا الجمهور الملحّة .

لقد كان حاضراً امام كل انسان ، ذلك الحضور الذي يدخل في الاعماق ويغمرها بالسلوى . وبينما انسان اليوم يُخشى عليه ان يلتوي على امسه ليعيش بالتذكارات ، او ان ينهد الى غده ليعيش بالامال والاحلام ، اذا بالمسيح يطلب منه ان لا يهجر الحاضر اليومي حيث يكمن اجل ما في الانسان : « اطلبوا اولاً ملكوت الله وبرّه وكل شيء تزدادونه » .

فاذا كان انسان اليوم لا يجد الحرية في عالمه ، فيجب عليه ان يحاول ايجادها في داخله وان يرفض الجبريّة التي تخنقه وتودي به .

انها لضرورة ، وانه لاجل ان يكون هكذا . فاي شيء هو هذا العالم حتى ينزع منا الحرية ويعلّلنا بإرجاعها لنا ثانية ؟

على انسان اليوم ان يستعيد هذا الحوار الداخلي مع الله ، هذا الحوار الذي هو سر الحرية الحقيقية .

لا شك في ان الثورات الاجتماعية ، بعد ان تكون خنقت الانسان ، تستطيع تحريره . ولكن هذا لن يكون الّا الى زمان . فالصناعة بوسعها ان تعين الانسان على رخاء مادي يفسح له مجال التفكير . ولكن اجل ما الانسان يظلّ دائماً في داخل الانسان . فما من احد يستطيع العيش حقيقةً في دنيا افكاره البعيدة المرامي ، ولا في الاراء التي يكوّنها ، ولا في انحطاط يسفل عن وجوده الحقيقي . عليه ان يدرك وجوده الحقيقي ، ومن خلال ذلك ، الوجود الاوحد .

كثيرون هم الفلاسفة الذين حاولوا إدراك هذا الوجود من خلال اساليب جدلية غامضة . وكان من ذلك ان انكروه ، لانه في غير البراهين ، وفي غير شك ديكرت او مُثُل افلاطون . انه يفوق كل ذلك . فالله هو عبر كل فلسفة . وما تستطيع الفلسفة سوى التوجيه اليه .

وهناك فلسفات اقرب الينا حاولت في القلق والفشل والرجفان ان تصور الارتعاشة امام الله ولكنها اخفقت . فاذا بالنتيجة غير ما كانت تترجى . اما الفلسفات التي اخذت بالالحاد اولاً فانها ، وإن اعلنت ان البطولة ضرورية في عصرنا ، قد قالت بالبُطل وان لا معنى للحياة . فاذا بالانسان لا يعرف لاجل من يحيا ولاجل من يموت . فالعالم الوجودي بعد ان فقد سبب وجوده لا يزال يحفظ الحنين للحبّ والجمال والعدالة .

كل مرة كان الاخفاق حظ الذين حاولوا إبعاد الانسان عن داخله. فالمهم إعانة الانسان على العودة الى ذاته. مسكين الانسان الذي يقضي حياته صامتاً في قبولٍ عقيم . مسكين الانسان الذي تصطدم شهوته للعدل والسلام بالقوى الصناعية والاقتصادية الجبارة . مسكين الانسان الذي يُخشى على روحه ان تهجر عالماً غدا مهجوراً ، عالماً مخيفاً فَقَدَ كل معنى للسرّ. في بلاد كبلادنا حيث الطبيعة تساعد على الهامات القلب الحدسية ، تُرى يجب ان تكون الطبيعة ذاتها فقدت معنى مصيرها فاصبحت لا تهدي الانسان المضطرب الى طريق السلام وآثار الله .

ان صرخات الاسى المتصاعدة من اعماق البشرية يجب ان لا تثقل الارادة الراغبة في الخير. فالانسان يسفل عن دعوته الحقيقية اذا اشاح بنظره عن الاخطار التي تحوق بحياته فيجابهها ويجد فيها غذاء قوياً ولكنه مرّ الطعم يستطيع بواسطته ان يدخل غمرة العراك فيخدم اخوانه ويبقي للحياة وجهها الانساني.

الاب اغناطيوس عبده خليفه اليسوعي